

المسكوت عنه في تاريخنا..

د. محمد صابر عرب

المسكوت عنه في تاريخنا العربي والإسلامي كثير، فالشائع - مثلاً - عن الخلافة في بداية الدولة الإسلامية أنها راشدة، رغم أن ثلاثة من الخلفاء قد قتلوا بطريقة مأساوية، وما قيل بأن العصر الأموي كان عصر الفخار والعزة والكرامة، لكن المسكوت عنه وخصوصاً خلال فترة قيام الدولة وما صاحب ذلك من إراقة دماء انسابت في الأمصار العربية، وإقحام الفقهاء للزود عن الدولة وحكامها، وما قيل من فتاوى تجاوزت قضية الدين إلى السياسة لكي ينعم الأمويون بأبهة الحكم، كل ذلك مسكوت عنه في كثير من كتابات المؤرخين المحدثين.

وفي سبيل تدعيم أركان الدولة الأموية أهدرت حقوق وصدّرت فتاوى، واختلقت أحاديث وحكايات نسب بعضها إلى الرسول ع ، ولفقت روايات بهدف تجميل صورة الأمويين زهداً وكبرياء، وراح العامة يرددونها على الناس،

وتحت راية الجهاد أقترفت أعمال وتجاوزات تناولتها كتب التاريخ بقدر من الاختصار أحياناً وبالتفصيل في أحيان أخرى.

ومع بداية العصر العباسي تعاظمت السياسة على حساب الدين، وما كانوا أصدقاء الأمس من أسرة علي بن أبي طالب، أصبحوا خصوم اليوم، لدرجة أن تناولهم خطباء المساجد قدحاً وتشهيراً، فلم تكن الغيرة على الدين هي الأساس بقدر ما كان الحرص على الحكم وأبهته وهيبة الدولة، صحيح أن العصر العباسي هو عصر الموسوعات العلمية في شتى مجالات المعرفة لكن الكثير منها، وخصوصاً في الدراسات التاريخية والفقهية جاء إما من نسيج الخيال أو اعتماداً على الروايات الشفهية التي لم تكن كلها صحيحة ولا محققة.

لقد انتقل هذا كله إلى ثقافتنا المعاصرة وتعددت القراءات والاجتهادات التي أدخلتنا في أتون حروب فكرية أيديولوجية لم تعمل المؤسسات العلمية والجامعات على تحقيق هذا التراث في مجالاته المتعددة، لدرجة أننا نسمع أحاديث يرددونها أدعياء العلماء، والعامّة، لا يمكن أن تتفق وصحيح الدين الذي كرم المرأة، وأكد على حق المساواة بين الناس، وجعل قيمة العمل والتفاني فيه من قبيل العبادة الحقيقية، لكننا أسرفنا في سفاسف الأمور، حينما عينا بأمر من قبيل الثوب القصير أو الطويل، وإطلاق اللحية أو حلقها، وهل صوت المرأة

حلال أم حرام؟ وأخرها قضية النقاب بل وحرّم بعضنا الغناء والموسيقى، وبالغنا في المظاهر على حساب المضمون، ولم نعمل على أعمال العقل فيما يستوجب التفكير من علم ومعرفة، واكتفينا بالمنقول والمحفوظ على حساب الفهم والوعي والتحقيق.

وهكذا صارت حياتنا من سيء إلى أسوأ، وظهر نجوم الفضائيات الذين راحوا يشكلون دون وعي منا تفكير العامة من البسطاء.

والمتابع للمشهد الإسلامي يصاب بحالة من الألم فهي حضارة الإسلام العظيم تُفرّغ من مضمونها تحت ادعاءات الجهلة وطالبي الشهرة من أنصاف المتعلمين؛ الذين انكبوا على التراث يغترفون منه ما يحقق طموحاتهم العنترية، بصرف النظر عن ثمينه من غثه.

والمتابع لواقعنا المعاصر يدهش من هول ما يقال سواء في قنوات فضائية وإعلامية؛ أو ما ينشر من كتب اعتمدت على مرجعيات فقهية وتاريخية لا سند لها في الواقع، إلا من خلال بعض الكتابات المنزوعة من سياقها التاريخي مما أحدثت بلبلة واضطراب هائلين في حياتنا العربية والإسلامية وانقسمنا إلى قبائل وجماعات شتى ورحنا نقاتل بعضنا البعض، وكل منا يدعي

أنه يدافع عن الإسلام شريعة وعقيدة، بينما الإسلام في حقيقته هو بناء حضاري متكامل لمجتمع ينشد التقدم والحرية وإسعاد البشر.

ولم يلتفت أحد إلى سؤال طالما يتكرر: لماذا يتقدم الآخر ويتخلف المسلمون والعرب؟ وهو سؤال من قبيل السهل الممتنع، لعل الإجابة عليه تحتاج إلى قدر هائل من الصراحة حتى نقف على الأسباب الحقيقية للمشكلة، ويبدو فهم الإجابة من خلال تاريخنا الطويل الذي اختلط فيه الدين بالسياسة، لدرجة أننا لم نفرق بين ما هو ديني وما هو سياسي، واختلط فيه الحكم بنظرياته الاجتماعية والسياسية، بأفكار فقهية سلفية قيلت في زمن بذاته، بينما لم تعد تتناسب والواقع المعيش.

لقد شاع خطاب أسقط من حساباته ما يمكن تسميته بفقهِ المصلحة أو فقهِ الحياة المعيشة، وفي أحيان كثيرة ساعدت الأنظمة السياسية على شيوع هذا الفكر اعتقاداً من البعض بأنه يخدم الواقع السياسي ومصالح الحكام الذين استندوا في بقائهم على مقولات فقهية قال بها البعض، فإذا بهم يفاجأون بمقولات أخرى تنسف فلسفة وجودهم واستمرارهم، وهكذا اختلط الحابل بالنابل، لكن كانت محصلة كل ذلك هي تلك الفوضى العارمة في واقعنا

الاجتماعي والسياسي والديني؛ الذي يعد التعليم بمقوماته الحقيقية هو المدخل الصحيح لإصلاح كل تلك الفوضى الضاربة في واقعنا الثقافي والاجتماعي.

د. محمد صابر عرب